(الوجدان) المخاض

-٩-

فائق بطي

لأهمية كتاب فائق بطي (الوجدان) الذي بث فيه سيرته الذاتية عبر نصف قرن من تاريخ العراق الحديث، آثرت (المدى) الثقافي أن تنشر بين وقت وآخر حلقات من هذا الكتاب الذي سيصدر عن دار (المدى) بدمشق قريباً لما يلقيه الكتاب من ضوء على مفصل مهم من نشوء الصحافة العراقية، وتطورها وأثرها في المعترك السياسي، واثر التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري وما رافقه من أحداث وانقلابات. والكتاب من زاوية أخرى يكشف أسراراً وحلقات مؤثرة من تاريخ العراق السياسي والثقافي.

المدى الثقافي

الفصل الخامس

١١ آذار ١٩٧١

كان فرحا على غير عادته في ادارة الجريدة وهو يتصفح عدد (التآخي) مسرورا بالعدد الخاص لمناسبة الذكرى الاولى لبيان ١١ آذار، فدلف الى الداخل مهرولا، كاكا (هيوا) الشغيل الكردي الطيب، وقال بلهجة اختلطت فيها العربية بالكردية:

- خطر والله، خطورة، لا يعرف كاكا بس هواية خطر.

- ما هو الخطر يا كاكا؟

- الصراخ في غرفة كاكا دارا.

- ومن هناك في الغرفة مع دارا؟

- كل اعضاء المكتب السياسي.

- وماذا يقولون؟

التفت الشغيل البسيط الى الخلف، ثم همس في اذنه:

- هل انت شيوعي كاكا؟

حدق في وجهه الذي جعلت منه التجاعيد والخطوط الغائرة في اكثر من بقعة، شيخ لم يقل عمره عن الثمانين، وابتسم له قائلا:

- لماذا هذا السؤال بالذات؟

- لأنهم يقولون الجريدة شيوعية ومو بارتية، ويذكرون اسمك بعصبية.

اطرق يفكر برهة، ثم خطرت في رأسه فكرة قد تكشف ما يدور في غرفة رئيس التحرير. هرع الى اجتماع المكتب السياسي، فوجد الجو مكهربا. شعر بالحرج وهو منتصب في مكتب (دارا)، فسارع الى تدارك الموقف باطلاق حجة لم تكن موفقة. قال لرئيس التحرير:

- عفوا، هل الافتتاحية جاهزة للطبع؟

خلع سكرتير الحزب (حبيب محمد كريم) نظارته ورمقه بنظرة حادة، لحقه (سامي عبد الرحمن) بنظرة لا تقل حدة عن نظرة السكرتير، بينما مال (صالح اليوسفي) الى جهة دارا متهيئا لافشاء سر الاجتماع الخطير. ادرك من خلال تلك النظرات الحادة، خطورة موقفه تماما كما عبّر عنها الشغيل الامين (هيوا). اعتذر وانسحب بهدوء الى مكانه في انتظار لحظة الانفجار.

انفك السياسيون الأربعة، اعضاء المكتب السياسي، وحلفاء البعث، وسارع (هيوا) الى زف البشرى، وهو يقول:

- كاكا سلامات..

ذهب الى دارا، فوجده واقفا والعرق يتصبب من فروة رأسه وقد اصطبغت ارنبة انفه بلون الليمون. ما ان لمحه، حتى اهتز بدنه وارتعشت الكلمات على لسانه حين بادره بالسؤال:

- ما هذا المنشور في الصفحة الرابعة؟

نظر الى حيث يشير اصبع رئيس التحرير على الصفحة الرابعة، فوجده يبصم على كاريكاتير خاص بالمناسبة. قال لدارا:

- ماذا ؟

- الكاريكاتير غير واضح.

- اعتقد يا كاكا دارا انه يعبّر عن المناسبة، ١١ آذار خنجران في جسدي امريكا وبريطانيا.

سقط دارا على كرسيه منهارا لا يقوى على الافصاح عن رأيه، وارتسمت علامات الحيرة على وجهه.. انه ضائع.. قيادة الحزب وبشخص سكرتيره، تريد منه شيئا، وسكرتير التحرير يريد ويعمل شيئا آخر.

لم يترك صديقه القديم يتخبط ويتألم كثيرا .. فواجهه بالحقيقة: قال انه يعتبر نفسه مستقيلا من الجريدة. لم يكن دارا يتوقع ذلك، ولم يتفق مع رفاقه على شيء، لكن المكتب السياسي كان قد اتخذ قراره بالتخلص من رجل (الاحراجات) في دولة (البعث).

ذهب الى غرفته. ترك الاوراق على منضدته، والتفت الى شريكه في الغرفة (عبد الغني الملاح) الديمقراطي الهادىء والمثقف الساكت من دون ضجة، والانسان الرائع لمن يعرفه، وقد زامله في (التآخي) اربعة اشهر، تخللتها الطف الاحاديث السياسية والثقافية، وهو يعد الايام الحلوة عساها الا تنتهي، التفت اليه مودعا، وقال:

- يا عبد الغني، انا لست من الذين يجيدون اللعب على الحبال في (سيرك) الالعاب السياسية.

ترك كل شيء وخرج من الباب الرئيس للمطبعة مودعا العمال الذين لم يكن يعرفون او يدركون ما كان يجري في الطابق الاول من مبنى الجريدة.

ترك الجريدة وقرر ألا يعود الى الصحافة بعد تجربتي (النور) و (التآخي).

❖❖❖

كان الحكام الجدد يسرعون الخطى ويتسابقون في محاولة تبييض وجوههم الكالحة: ميثاق العمل الوطني.. بيان ١١ آذار.. تعزيز العلاقات مع منظومة الكتلة الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي.. الوعود باقامة جبهة وطنية عريضة يكون الحزب الشيوعي العراقي طرفا رئيسا فيها.. و.. و..

اطل عليه (فخري) وفي جعبته هذه المرة، مشروع العمل الجديد. قال له من دون مقدمات كعادته حين يتحدث معه مدركا تمام المعرفة أن رفيقه وصديقه التاريخي سوف لا يرفض له طلبا، طالما هو يمتحن (الوجدان) كالسابقات من المطالب والمواقف. قال فخري مستعجلا الامور:

- اتفقنا على ترشيحك لعضوية مجلس نقابة الصحفيين الأول.

- من الذي اتفق يا فخري؟

- نحن وممثل البعث، سعد قاسم حمودي.

- يعني...؟

- الثقة.

- ومن يا ترى يمنح الثقة؟

- انها خطوة تصب في طريق تحقيق متطلباتها.

اطرق يفكر لحظات، ثم فجأة وعلى غير عادته، انفجر في وجه فخري قائلا:

- ثقة مشروطة بالتأكيد ومن جانبهم ولمرحلة مؤقتة..

ارتسمت علامات التعجب والغضب على وجه فخري وعلا صوته للمرة الاولى وهو يقول:

- ماذا تقصد يا ابا رافد؟

- سحابة وتعدي يا صديقي العزيز.

علا صوت فخري اكثر وهو يؤكد أن الاتفاق الصغير في المنظمات المهنية عربون للاتفاق الكبير.

اجابه:

- ولكن يا فخري الثقة معدومة وانا واثق بأن الحاجة وحدها وراء الحاحهم على العمل المشترك.

- ارجوك لا تتطرف..

- ....

كان كل شيء قد انتهى.. فاسماء القائمة الائتلافية اذاعها راديو بغداد وكررها التلفزيون.

في المساء، رن الهاتف في داره في ساعة متأخرة من الليل، وكان فخري يتحدث بعصبية ويطلب منه الذهاب الى (دار الجماهير) وانتظاره هناك لأمر مستعجل. حاول ان يفهم منه او يستفسر عن هذه العجالة، الا ان فخري طمأنه بأن المسألة ستحل بما تشتهيه نفس الرفاق.

في غرفة رئيس تحرير جريدة (الجمهورية) جلس يقرأ فقرات البيان الانتخابي الذي اعده (سعد قاسم حمودي)، حين دلف الى الغرفة (فخري) وفي يده نسخة من البيان المطبوع بدار الجماهير.

جلس فخري الى جانبه وقال:

- ما رأيك بما مكتوب في البيان؟

- هل جرى الاتفاق على الصياغة التي تبدو غريبة في بعض من الفقرات خصوصا الفقرة الأولى.

ثم فجّر ابو نبيل قنبلته الموقوتة بعد ان اعاد قراءة البيان على سعد قاسم حمودي، بصفته النقيب المرشح على رأس القائمة، الذي راح يشغل نفسه بمراجعة مواد الجريدة. قال فخري لسعد:

- نحن نعلن انسحابنا من القائمة الائتلافية يا سعد.

تلعثم سعد وهو يستفسر عن السبب، بينما رد فخري ببرود هذه المرة:

- لم نتفق مطلقا ولم يكن في الحسبان ابدا ان تذكروا في الفقرة الاولى اسم (الحزب القائد) او (الثورة الرائدة)، وانتم ادرى بموقف حزبنا وسياستنا الجبهوية، ان هناك بالفعل سياسة جبهوية لديكم. ثم نهض لينصرف، فبادره سعد بالقول:

- لا تستعجل يا رفيقنا، ماذا تريد بالضبط؟

- تمزيق البيان.

- لنتفق اذن.

جلب (ضياء حسن) سكرتير تحرير الجمهورية والمرشح للنقابة عن اصدقاء البعث، جلب كل النسخ المطبوعة وتم تمزيقها من قبل الاربعة المتواجدين في غرفة سعد.

ضحك رئيس التحرير البعثي وابتسم فخري، رئيس تحرير جريدة (الفكر الجديد) وحبس هو انفاسه حين سمع النقيب المرشح يقول:

- يجب ان نحشد قوانا وقواكم في الانتخابات يوم الجمعة القادم.

في طريق العودة، التفت اليه فخري وقال:

- ما رأيك بما حدث يا ابا رافد؟

- جيد.. ولكن..

قهقه فخري في مثل تلك المواقف كلما سمع منه كلمة (لكن) وقال:

- اراك تستعمل كلمتك المعتادة من جديد.

- انه عمل جيد ويجب تلقينهم درسا بابسط ضوابط الاخلاق واحترام اي التزام بين طرفين.

- وماذا بشأن (لكن)؟

- لولا حاجة البعث للتعاون في هذه الظروف، لقال لك سعد نحن نصر على رأينا..

سكت ابو نبيل، وشقت السيارة طريقها الى منطقة البتاويين بينما راح يفكر طويلا محاولا ان يرسم صورة تكون معبرة عن العمل المشترك الذي سيؤطر العمل الجبهوي القادم.

فازت القائمة الائتلافية التقدمية وضمت في صفوفها ممثل حزب البعث بشخص (سعد قاسم حمودي) نقيبا، واعضاء مجلس النقابة من البعثيين والمحسوبين على ملاك البعث، (حسن العلوي) (جليل العطية) و (ضياء عبد الرزاق حسن.) وضمت الى جانبه، (فخري كريم) نائبا للنقيب بصفته ممثلا للحزب الشيوعي العراقي. كما ضمت (احمد الجزراوي) نائبا ثانيا للنقيب ممثلا عن الحزب الديمقراطي الكردستاني. اما القوميون، فمثلهم (سجاد الغازي) و (عطا الله شهاب).

في تلك الفترة التمهيدية لتجربة الجبهة، كانت له جولة جديدة مع البعث. فقد وجهت اليه عمادة كلية الآداب (قسم الاعلام) دعوة لالقاء محاضرة عن الصحافة العراقية. ان الحديث عن الصحافة بالنسبة له، كحبيب يتحدث اليه ويناجيه، فيعطيها حقها وما تحتاج اليه من العناية والحنان. الا ان العواذل كانوا له بالمرصاد.

تبرع اكثر من طالب صحافة بعثي بكتابة تقرير مغرض ومشوه عن مضمون المحاضرة واجتهادات المحاضر في المقارنة بين الصحافة الملتزمة الداعية والمنظمة، وصحافة الارتزاق والردة. ان موضوع الصحافة يتطلب الحديث عن تجاربها عبر مراحل تطورها، ولابد من ان يعرج المتحدث على تجربة صحافة البعث: (الثورة) و (الجمهورية).

تحولت تلك الاحاديث الى مادة تحريضية ضد المحاضر، كما تحولت (هلسنكي) في تقارير اوكار البعث في عام ١٩٦٣ الى (لاسلكي) ضد اخيه سامي، كذلك تحولت عبارة (النقد) الى (قذف) ضد حزب البعث وصحافته في تقارير طلاب الصحافة الذين تحولوا من طلاب اكاديميين الى شرطة أمن.

في اليوم التالي جاءته رسالة سرية ومستعجلة من (طارق عزيز) رئيس تحرير جريدة (الثورة) يندب فيها حظه ويبكي على محاولة اغتيال جريدته على يد المحاضر امام طلاب واساتذة كلية الآداب. طالب فيها رد الاعتبار اليه والى الحزب وصحافته (الثورية)، ويحيله الى المحاكمة الاعلامية العلنية في (نادي الاعلام) امام جمهور كبير من الصحفيين وموظفي وكالة الانباء العراقية واعضاء بعثيين عاملين في وسائل اعلام الدولة، الى جانب العديد من رجال المخابرات والأمن العامة.

كانوا هناك في النادي.. خمسة رؤساء اقسام في جريدة (الثورة) يتقدمهم (حربي محمد) يحتلون منصة خشبية اقيمت في حدائق النادي، وامامهم يجلس (طارق عزيز) وحده في الصف الامامي، وفي الصفوف الخلفية تتزاحم على مقاعدها اجساد ازلام صحافة البعث. اما هو، فكان وحيدا ينصت ببرود الى مطالعات المتحدثين من رؤساء الاقسام. لقد صدم رئيس التحرير تماما كما صدم اصحاب التقارير الأمنيين والأميين بنقد حاد لتجربة الجريدة، بل ويستشهدون بما سبق ان تضمنته محاضرته (الخطيرة) في قسم الاعلام وتنتهي الندوة بعد ثلاث ساعات من المناقشات وتوجيه الانتقادات لصحافة آخر زمان.

تخلو الحديقة من الحضور الا هو و (طارق عزيز) مع بعض المرافقين المسلحين.

تقدم اليه طارق وبخجل واضح قال له:

- هل قلت في محاضرتك اكثر من هذا؟

ابتسم بدوره لطارق وردعليه بشماتة:

- بل اقل بكثير مما قاله صحفيون مستجدون، ولكن اكثر منهم مما قاله صحفي اكاديمي ممتهن.

شدّ ابو زياد على يده وقال:

- ارجوك ان تقبل اعتذاري الشخصي، اما مكتب الاعلام القومي، فأنا اتكفل بذلك.

- يعني؟

- تبا لتلك التقارير...

هكذا بدأت الصحافة تسقط في يد الاعلام الأمني والمخابراتي بعد اقل من ثلاث سنوات..

ومع اعتذار (طارق عزيز)، اعتذر (سعد قاسم حمودي) نقيب الصحفيين ورئيس تحرير جريدة (الجمهورية) وعضو مكتب الاعلام القومي لحزب البعث، عن مواصلة نشر زاويته الاسبوعية (خواطر السبت) التي دأب على كتابتها اشهرا!

قال له سعد:

- خاطرة السبت الأخيرة كانت خطيرة وفيها (دس) مقصود علينا.

- انك يا سعد تكرر ما نشره (رشيد ياسين) في مجلة (وعي العمال) ضدي حين اسماها (شتيمة السبت).

- لا علم لي بما كتبه ولكن هذا رأي الرفاق في مكتب الاعلام القومي.

وتوافقت اشارة (سعد) مع اعتذار (فؤاد قزانجي) رئيس تحرير جريدة (بغداد اوبزرفر) التي تصدر باللغة الانكليزية عن الاستمرار في نشر تقاريره السياسية الاسبوعية التي درج على كتابتها مدة ستة اشهر.

ولكن هذا الاعتذار الاخير كان من دون سبب..

القادم من الجحيم

عن فكرة التسامح الساذجة!

جمعة الحلفي

حين سيهتف جميع الأحياء، أو جميع من كانوا أحياء، قائلين (أنت على حق يا رب في مشيئتك) سوف تعانق الأم عندئذ ذلك الجلاد، الذي أمر الكلاب يوماً بتمزيق ابنها، وسوف يردد الثلاثة، من خلال دموع التسامح والغفران (أنت على حق يا رب.. أنت على حق...) لكن ذلك بعينه هو العقدة، لأنني لا استطيع أن أقبل حلاً كهذا الحل!

هكذا يصرخ دويستوفسكي، في روايته الشهيرة (الأخوة كارامازوف) رافضاً الدفاع عن فكرة التسامح الساذجة، أو العفو عن مرتكبي الخطايا باسم المغفرة والحنان الإنساني، مصراً على مبدأ معاقبة مرتكب الخطيئة. فليست هناك فكرة ولا غاية، كما يقول، يمكن أن تبرر إخضاع الناس للشقاء والعذاب، من أجل تحقيقها.

تذكرت حوارية دويستوفسكي القاسية تلك وأنا أقلب الصفحات الأخيرة من كتاب (القادم من الجحيم) لفارلام شالاموف، وهو مجموعة قصص من الأدب الروسي المحظور، ترجمها للعربية الدكتور منذر حلوم.

والكتاب، من مقدمته حتى آخر قصة فيه، اشبه بكابوس لا ينتهي، فهو يتحدث عما يسمى بـ(أعوام الإرهاب العظيم) في الاتحاد السوفييتي السابق، حيث قضي، خلال أعوام قليلة من حقبة ستالين السوداء، أكثر من خمسة ملايين إنسان حكم منهم مليون شخص بالإعدام واعدموا فوراً، أما البقية فقد خرج منهم قلة قليلة، من المعتقلات ومعسكرات الأشغال الشاقة، وهم أحياء. وكان كاتب قصص (القادم من الجحيم) واحداً من هؤلاء الذين حالفهم الحظ ليعيشوا (هل عاشوا حقاً؟) بعد هذه المأساة الإنسانية. فقد اعتقل فارلام شالاموف، وهو شاعر وكاتب روسي معروف، أول مرة في شباط العام ١٩٢٩، قبل أن يكمل الثانية والعشرين من عمره، وخرج من السجن في العام ١٩٣٧ ليمضي فيه، هذه المرة، قرابة عقدين من عمره، يصارع الزمهرير والتجويع والإنهاك والإذلال وكل ما يسحق إنسانية الإنسان. وعندما أعيد لشالاموف اعتباره، مع كثيرين غيره، من قبل خروشوف في حزيران العام ١٩٥٦ اكتشف أنه لم يعد ممكناً له أن يعيش مثلما كان قبل اعتقاله، أو مثلما كان يحلم طوال تلك السنوات، التي قضاها في صقيع المعتقلات ومعسكرات الأشغال الشاقة، فقد استسلم الجميع للرعب الذي زرعه الطاغية في قلوبهم، ولم تجرؤ، حتى زوجته التي كان يقتات على رسائلها في سنوات سجنه الأولى، على استقباله في البيت ولو ليلة واحدة، بعد خروجه من المعتقل، خوفاً من خرق (نظام الإقامة) الصارم، الذي كان لا يزال سائداً في تلك الأيام.

وإذا كانت الحكاية الشخصية لكاتب قصص (القادم من الجحيم) بمثل هذه القسوة، وهي تلخص سني العذاب والهوان والموت البطيء، في ظل النظام الذي زعم أنه أراد أن يشيد الجنة على الأرض، فما الذي ترويه إذن تلك القصص، التي دون حروفها الأولى وهو يعيش في معتقلات الكاليما الموحشة والقاتلة؟

لقد عاش العالم عقوداً طويلة وهو لا يعرف من الأدب الروسي (السوفيتي) كما يقول الدكتور حلوم، سوى الأدب الرسمي (الإيجابي) المهور بخاتم مؤسسات الرقابة، وهذا صحيح تماماً فمثلما خرج الأدب الروسي من معطف غوغول، كما يقال في النقد الأدبي، خرجنا، نحن قراء هذا الأدب، من معطف الأيديولوجيا، ولهذا فقد كان ذلك الأدب بالنسبة لنا أشبه بأيقونات مقدسة، مثلما كان أي شيء يأتينا من (جنة الأرض) المزعومة، مقدساً ولا يطوله الشك. ومع إننا كنا نبتسم بإشفاق حين نسمع حكاية ذلك الشيوعي (العراقي أو العربي) الذي كان يمتعض ويخبط الطاولة أمامه، إذا ما قيل له أن الشتاء بارد جداً في موسكو، فقد كنا، أيضاً، ننظر بريبة لمن يتداول تلك الحكاية، فشتاء موسكو هو شتاء الاشتراكية والشيوعية ولا يمكن أن يكون بارداً جداً. هكذا أيضاً، أو هكذا بالضبط، قرأنا الأدب الصادر في موسكو والمهور بخاتم الرقابة الأمنية والأيديولوجية، مثلما يقرأ الأعمى رسائل الغرام على طريقة برايل. كنا نتلمس الأشياء من دون بصيرة أو ببصيرة مستلبة، ولم نكن نعرف، أو لم نكن نريد أن نعرف أن أدباً آخر، مغايراً وأصيلاً وإنسانياً وقاسياً أيضاً، كان مغيباً ومحظوراً في ظل الأيديولوجية القسرية، التي صادرت لا الأدب وحده وإنما حياة ملايين البشر ممن تربع الطاغية على أرواحهم عقوداً سوداً من الزمن. أدب ما كان له أن يرى النور يوماً (وقد لا يراه؟) لأن كتابه ومبدعيه كانوا يقبعون في السجون والمعتقلات ومعسكرات العمل الشاق. فقد كان هناك وراء القضبان، طوال سني (الإرهاب العظيم) أكثر من ألفي كاتب وشاعر وفنان ومثقف، بحسب الإحصائيات الرسمية لاتحاد الكتاب الروس، التي نشرت بعد إنهيار الاتحاد السوفييتي، أما الإحصائيات غير الرسمية فتقدر العدد بأضعاف، وكان بينهم شعراء مشهورون من أمثال كليتشكوف وكلوييف وسيميلياكوف ومارطينوف وفاسيليف وكورنيلوف وزابولوتسكي ونارباوت وشيفتسوف وأوريشين وهيراسيمون وهارمس وكثيرين غيرهم، إضافة إلى الآلاف من الكتاب والمثقفين ممن كانوا خارج اتحاد الكتاب والمؤسسات الرسمية الأخرى.

المهم، وكي نعود إلى فارلام شالاموف، نقول يكفي المرء أن يقرأ قصة واحدة من الخمس عشرة قصة، التي يضمها كتاب (القادم من الجحيم) لكي يتذكر حوارية دويستوفسكي عن بلاهة مبدأ التسامح والغفران، عندما يتعلق الأمر بأولئك الذين ارتكبوا خطاياهم بكل خسة ودراية وبرودة دم، وعرضوا حياة الناس ومصائرهم للدمار ولأنواع شتى من الشقاء والعذاب، باسم أهداف وغايات وشعارات تكشفت عن أوهام وأكاذيب وترهات، فبأية لغة تسامح ستقبل المرأة ذلك الجلاد الذي أمر الكلاب يوماً بتمزيق لحم ابنها أو زوجها أو شقيقها؟ وكيف ستدعو الرب ليغفر له تلك الخطيئة؟

في روايته الشهيرة، هي الأخرى، (خفة الكائن التي لا تحتمل) يشرح ميلان كونديرا فكرة دويستوفسكي ولكن على صعيد سياسي هذه المرة: فقد يكون صحيحاً إلى حد بعيد أن (الأنظمة المجرمة لم يشكلها مجرمون وإنما شكلها متحمسون مقتنعون بانهم اكتشفوا الطريق الوحيد المؤدي إلى الجنة، وأخذوا يدافعون بيقظة عن هذا الطريق ساحقين، من أجل ذلك، كثيراً من الناس) لكن هل على الإنسانية، كما يعلق الدكتور منذر حلوم، أن تدفع أرواح الملايين من أبنائها، كل مرة، لتثبت جنون بعضهم وتشبع حماسة بعضهم الآخر؟ وهل يجوز تجريب العقائد والأيديولوجيات على حياة الإنسان كما تجرب الكيمياء على حياة الفئران؟!

ذرائع باهتة أحبُّها

طالب عبد العزيز

في الأرصفة الباردة، حين تغويك الأشياء، ولا تنتظم في رأسك فكرة ما. حين تجد يديك فارغتين إلا من ذكرى نائية لامرأة، ستجد في التجوال المضن لخطاك، في الظلال التي تأثثت بالذكورة والأنوثة عبر السنين، أنك لم تكن وحيداً أبداً، ثمة أغنية ابتكرتها الشواطئ القريبة من الرصيف، تعلمها الموج بترداده الأزلي على العشب والصخور وظهور السلاحف.. تدعوك، فاستمع. هي أنثى الغربة وذكورة الجنوب المالحة، هي النسيان الباذخ فوق الخطى حيث لا تتكرر النوارس على القوارب إلا مرة كل عام. هذا النداء الأزلي الذي يعصف بالروح، الروح الورقة الملقاة على الرمل منذ خمسين عاماً، تبتكرها الظلال، تعيد صورتها، ترسمها الأشرعة على الريح الباردة البلهاء.

من خطأ في الصحيفة، تصححه، غير مكترث بما يضمره الطباع، مصفف الحروف، مخرج الصفحة السادسة، ابتكرت سطراً وقفت بانتظاره المساء تلو المساء، (حتى تمزق الغيم من حولك)، ثم حين تأكد أنحناء الجسد لديك، هب الطفل الترق في روحك، متحدياً ثلج الفودين وارتجاف الأصابع.. ثم غمر جسدك بالأنوثة غمرها كلها، حتى ابتلت عروقك، ظامئ الأسارير كنت، عطشاناً هل لامس شعرك الصدغ الجبلي حين انهارت الشمس عليك أم اكتفيت بيدك وهي تضطرب في اليد السالبة، باردة الخواتم..؟

مورقاً تخرج، كأن الحدائق أسلمتك للندى بينما يعلق الباعة الفاكهة كؤوس نور في الواجهات، لا يغضبك الحوذي، يرفع سوطه عالياً، تجري العربة. حصان يطارد الريح، فينخرق وجه الأرض، المدينة تمزح مع شتاء كاذب، فيرتجف الرصيف، غيمات متأخرات يخنقن وجه الشمس، هل طلبت صيفاً بالنخيل، أنا قلت للخريطة أن تنقلب، وعبثت بالجغرافيا.. من أجلك تؤجل الفراشات ألوانها. ولك يقف سائق الحافلة على الجسر حيث يمنع رجل المرور وقوف المركبات. أرايت المدينة كيف تبتكر أمناً زائفاً بينما الأدلاء غائبون، تفتحين سحاباً آخر ليفر أرنبان وليتحرر الجسد. الحرية أن ينهمر شعرك، ألا يأتي الإدلاء أبداً.

قرأت لك القصيدة التي كتبتها العام الماضي، قلت لك متعجلاً سأكتب للعام القادم قصيدة. وما إن أحضرت حقيبتك حتى أكملت الحرف الأخير، وبورقة كثرت أخطاؤها قلت:

سيمضي وقت طويل
كي أمحو ذكراك
ايتها العزيزة زهرة النرجس
سانتظرك في مرافئ كثيرة
على شط العرب
وستمر قطارات نحو الجنوب
لن تكوني في إحدى عرباتها
لأن البرد سيمنعك
هذا الشتاء
هذا الشتاء
أيتها الشمالية الصغيرة

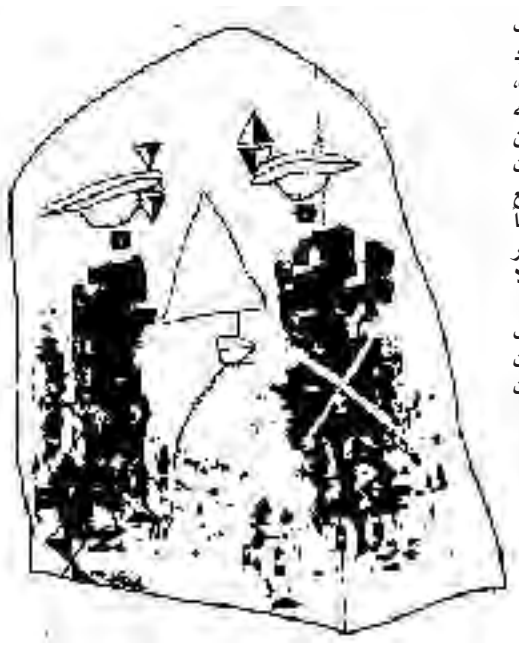

سيكون الوقت قد أعشب
من آمالنا
التي جفت مطلع القرن
انتظريني إذن
على جبال شاهقة
حيث يتراكم الثلج
ليس بعيداً / عن قلبك الأبيض الصغير
سأنتظرك في السهول
في السهول
حيث تشرق الشمس
لأول مرة على شعرك الفاحم الحزين.

أرأيت كيف يتحقق الشعر، الآن أسألك؛ هل جلبت برنصا للبرد..؟ أم اكتفيت بالجنوب حيث يعدك بالدفء والنخيل، نعم اختفت الشمس في الأول من نيسان، كادت تشرق في الأيام الأخيرة، ألم أقل لك أن لحضورك أكثر من معنى..؟

كان سائق المركبة الصغيرة يفرق عينيه على المرآة مرة وعلى عطرك الباذخ في المقعد الأخير مرة أخرى. وفي الغياب المبكر للرعاة، حين كانت المركبة تنتزع النخيل بمرورها البطيء الحر، غير عابئة بالظلال التي ظلت تتقاطع على بلور السيارة الأمامي، فترسم وعولاً متأخرة، أسماكاً وغدراناً نائية، ثيراناً ومتوحشين، ذكورة وأنوثة تنفلت من السعف الأخضر والأنهار، أردت أن اقول إن السائق أكثر بهجة مني لأني رأيت عينيه باردتين في محجريهما، بينما تقدح عيناي ألماً وغربة. كان قميصك ينفتح للريح مرة وللموج والمطر التائه مرة أخرى فأؤجل عناقاً وأقمع نموراً، أتهجى المسافة بيننا آسٍ وغربة نحن نبتكر المواسم لتبتهج الأنهار، نؤجل الجبال لينام الماعز ونقترح ضفافاً لحمائم ستصل هكذا نتعلم أبجدية الرغبات. تترعنا السهول وتلفظنا الوديان، وفي كل عربة نترك أصدقاء لنا علقت صورهم في الشبابيك المغلقة، فيجيء سائق يمرر قماشته الرخيصة على الزجاج البليل الخضل ليمسح القبل والنظرات والتحايا، وسنظل ننتظر القادمين بأعين دامعة أبداً نقترح لون شعورهم وتجاعيد وجوههم ومقاييس أثوابهم.. هكذا كما لو أننا لم نودع أحداً.

عين الكاميرا تبتسم وأنت تمزحين بإصبع نضرة، ولكي أدنو منك رسمت برزخاً هو الحياء المتقطع في الصورة. كانت المنازل ذابلة، واسماء القرى تنسى وتندثر حين تجتازها المركبات، وفلاحون طيبون يبتسمون في المشهد، اختلف معك، لأن البحر الذي تسمينه جهلاً بالبحر، يطبقه الصيادون على ذراعيك. فيضيق، هذا الواسع، الذي لم تقف عليه امرأة منذ عام، ومثل قبضة من حصاد ينفلت كشعرك في وجه الغروب، أنشده الآن ألا ينطبق، فأنا غابة من نمور تتلوى وتضيق.

ذات يوم سنأتي مرة أخرى، نختلق حججاً وذرائع باهتة، نقترح أماسي، شطآناً ومراكب صيد، ونجلس على الصخور ذاتها ويصحبنا الحوذي ذاته، الذي ما زلت في مرآته تبتسمين، يا آخر حوريات الدنيا.

اشتمك لأن نادل المطعم تأخر، أنا جائع وأنت فرعاء، ولكي أودعك طلبت ليموناً وهاتفاً، كان السلم مصعداً كهربائياً مفروشاً بحشد من الغياب، تذكرت كل الصاعدين الى الأعلى كيف هبطت بهم هذه السلالم، كيف تركوا السطوح والمنازل الوطيئة، كيف تركوا أيديهم معلقة وهبطوا في الغرف ليبتلعهم الأبد.